نجوم في سماء العربية

الخليل بن أحمد وعبقرية الإبداع العلمي

د/ أحمد سعد الله

إذا ذكر صاحب اليوم عرف أنه رجل العروض والقافية، وأستاذ أساتذة البصرة والكوفة في النحو؛ ومؤسس علم المعجمات العربية؛ فقد اجتمعت لصاحبنا علوم لم تجتمع لواحد قبله، إنه الخليل بن أحمد الفراهيدي.

وقد مكنتني المصادر التي بين يدي من أن ألتقط لك – عزيزي القارئ – صورة من صباه، لنتأملها معا، لنستخلص منها طبيعة هذه الشخصية العلمية منذ نعومة أظفارها.

إن بداية حديثنا عن الخليل ستكون بذكر الفرزدق، ذلك الشاعر التميمي، الذي اشتهر بفصاحته وهجائه لجرير، وجرير هذا من أبرع الشعراء في الهجاء؛ وَكَانَ جرير يناضله ثَلاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ شَاعِرًا فينبذهم وَرَاء ظَهره وَيَرْمِي بهم وَاحِدًا وَاحِدًا وَثَبت لَهُ الفرزدق والأخطل[1]

أما الأخطل؛ فلم يكن مثلهما كما يحكي ابن سلام عن بشار بن برد، ولكن ربيعة تعصبت له فأفرطت فيه[2].

وما يعنينا هنا أن نؤكد أن الفرزدق هذا كان ثاني اثنين في الهجاء لم يكن لهما نظير ثالث، واشتهار الشاعر بهذا النوع من الشعر في ذلك الأوان مدعاة لأن يُخْطَبَ ودُّه، ويتقى شره، أو فلتقل مدعاة للابتعاد عنه خشية أن تحضره ربة شعر الهجاء فتنصب على من حوله أو من يجالسه، وإن لم يكن بينه وبينه عداوة.

غير أن المرزباني في كتابه نور القبس يروي عن صاحبنا فيقول: «قال الخليل: مرَّ بنا الفرزدق ونحن

---

١ - شرح ديوان الحماسة - يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ) - دار القلم – بيروت : ١/ ٤٦٤

٢ - طبقات فحول الشعراء - محمد بن سلام الجمحي- - تحقيق محمود محمد شاكر- دار المدني - جدة : ٢ / ٤٥٦

صبيان نلعب، وقد انصرف من المهالبة وهو على بغل، وكان قبيح الوجه، فجعلنا ننظر إليه، فوقف وقال ":

نظروا إليك بأعين محمرة

نظرَ التيوس إلى مُدَى القَصَّابِ

فقال له بعضنا: نظرنا إليك أنك مليح، كما ينظر إلى القرد وهو مليح، فصرف وجه بغلته وانصرف.

- قال أبو العيناء: الخليل قال له هذه المقالة وهو صبي، ولكنه لم يحب أن يحكيه عن نفسه»[1].

ويكمل الرواية صاحب كتاب أنساب الأشراف فيقول: «فجعل - يقصد الفرزدق - يفر من أيديهم ويضرب بغلته ويقول: عدس»[2]

لم يخش صاحبنا الفرزدق، ووقف يرد كلامه عليه، وتلك جرأة تستحق الوقوف أمامها، ولعلها هي التي تفسر لنا جرأته العلمية على وضع علمين لم يسبق إليهما في الراجح من آراء العلماء؛ علما العروض والقافية، وتأسيسه لعلم المعجمات العربية الذي وضع الخليل نواته الأولى.

يضاف إلى ذلك حياؤه بعد كبره، وبعد أن بلغ في العلم مبلغا، ذلك الحياء الذي يتضح من كلام أبي العيناء الذي ذكرناه لك: «الخليل قال له هذه المقالة وهو صبي، ولكنه لم يحب أن يحكيه عن نفسه».

الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم ، من ولد شبابة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدثان بن عبدالله بن زهران بن كعب[3].

---

١ - نور القبس – المرزباني – نسخة إلكترونية : ١/ ٢٥

٢ - جمل من أنساب الأشراف - تصنيف أحمد بن يحيى بن جابر البلازري ت ٢٧٩ هـ - الجزء الثاني عشر - تحقيق د / سهيل زكار و د/ رياض زركلي- دار الفكر للطباعة والنشر - الطبعة الأولى - ١٤١٧ هـ : ١٢/ ٩٤، و(عدس) اسم صوت لزجر البغل .

٣ - كتاب المتفق والمفترق – الخطيب البغدادي – تحقيق د / محمد صادق الحامدي – دار القادري – الطبعة الأولى – ١٤١٧ هـ : ٢ / ٨٦٧

قال أهل التواريخ والأنساب: لم يسم أحد بعد نبينا ﷺ أحمد قبل أبى الخليل هذا[١].

والفراهيد بفتح الفاء وكسر الهاء وبدال مهملة، هذا هو الصواب. وقال السمعاني: هو بذال معجمة، وهو تصحيف بلا شك. وكُتُب العلماء من الطوائف متظاهرة متطابقة على أنه بالمهملة. قال الجوهري في صحاحه: وكان يونس يقول: فرهودي، والفراهيد بطن من الأزد[٢].

وكان الخليل زاهدًا، متقللاً من الدنيا، وكان يمتنع عن قبول عطايا الملوك فكان قوته من بستان ورثه من أبيه

قال النضر بن شميل : أقام الخليل في خص بالبصرة لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال[٣].

ووجه إليه سليمان بن علي من الأهواز - وكان واليها - يلتمس منه الشخوص إليه وتأديب أولاده، فأخرج الخليل إلى رسوله خبزا يابسا وقال: ما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي بسليمان، فقال الرسول: فماذا أبلغه عنك؟ فأنشأ يقول:

أبلِغ سليمانَ أنّي عنه في سَعَةٍ
وفي غِنىً غيرَ أني لَستُ ذَا مالِ
سَخًّى بنفْسِيَ أنّي لا أَرَى أَحدًا
يَموتُ هَزلاً ولا يَبْقَى على حالِ
والرِّزْقُ عن قَدَرٍ لاَ العَجْزُ يَدْفعُه
ولا يَزِيدُك فيه حَولُ محتَالِ
والفقر في النفس لا في المال نعرفه
ومثل ذاك الغني في النفس لا المال[٤]

كان صاحبنا آية في الذكاء، وكان الناس يقولون: لم

---

١ - تهذيب الأسماء واللغات – أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي ت ٦٧٦هـ - إدارة الطباعة المنيرية – بدون تاريخ : ١/١٧٦

٢ - نفسه : ١/ ١٧٦

٣ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - لبنان - صيدا : ١ / ٥٥٧

٤ - ينظر المرجع السابق : ١ / ٥٥٧ ، وينظر أيضا المجموع اللفيف - أمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله العلوي الحسيني أبو جعفر الأفطسي الطرابلسي ت: بعد ٥١٥هـ - دار الغرب الإسلامي، بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ : ١ / ١٤٨

يكن في العربية بعد الصحابة أذكى منه[١].

وورد أن يحيى بن خالد بن برمك، قال: أربعة لم يدرك مثلهم: الخليل بن أحمد، وابن المقفع، وأبو حنيفة، والفزاري[٢].

واجتمع الخليل وعبد الله بن المقفع ليلة يتحدثان إلى الغداة، فلما تفرقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع فقال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل قال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه[٣].

❖❖❖

الخليل والعروض

كان صاحبنا يقول الشعر، ومن شعره:

وقبلك داوى المريض الطبيب
فعاش المريض ومات الطبيب
فكن مستعدا لدار الفناء
فإن الذي هو آت قريب

ويقال : إنه دعا بمكة أن يرزقه الله تعالى علما لم يسبق له ، فرجع وفتح عليه بالعَرُوض[٤].

ويروى أن الخليل كان يقطع العروض، فدخل عليه ولده في تلك الحالة فخرج إلى الناس وقال: إن أبي قد جن. فدخل الناس عليه وهو يقطع العروض. فأخبروه بما قاله ابنه. فقال له:

لوْ كنْتَ تعْلَمُ مَا أقُولُ عَذرْتَنِي
أوْ كنت أجْهَلُ مَا تَقُولُ عَذَلْتُكا
لَكِنْ جَهِلْتَ مَقالَتِي فعَذَلْتَنِي
وَعَلِمْتُ أنَّكَ جاهِل فَعذَرْتُكا

وأخبار الخليل وعجائبه كثيرة، وشعره قليل لأن شغله بالعلم كان أكثر منه بقول الشعر[٥].

❖❖❖

روى الخليل عن عثمان بن حاضر، عن ابن عباس، وعن أيوب السختياني. وروى عنه النضر بن

---

١ - بغية الوعاة : ١ / ٥٥٧

٢ - الأعلام - خير الدين الزركلي - الجزء الخامس - دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الخامسة عشرة – ٢٠٠٢ م: ٥ / ٢٩٣

٣ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان - تحقيق إحسان عباس- دار صادر – بيروت : ٢/ ٢٤٦

٤ - بغية الوعاة : ١/ ٥٥٨

٥ - طبقات الشعراء - ابن المعتز – نسخة إلكترونية : ١/ ٢٦

شميل، والأصمعي، وعلى بن نصر، ووهب بن جرير[١].

وهو أستاذ سيبويه ، وعامة الحكاية في كتابه عنه ؛ وكلما قال سيبويه : «وسألته» أو «قال» من غير أن يذكر قائله فهو الخليل[٢].

اشتهر صاحبنا بأدبه وإخفائه لذاته، وحبه لطلاب العلم، فقد ورد أنه كان إذا قدم عليه سيبويه يقول: مرحباً بزائر لا يمل[٣].

كما ورد أن اليزيدي دخل على الخليل يوما وعنده جماعة وهو على وسادة جالس فأوسع له فجلس معه اليزيدي على وسادته؛ فقال له اليزيدي أحسبني قد ضيقت عليك، فقال الخليل: ما ضاق شيء على اثنين متحابين، والدنيا لا تسع متباغضين[٤].

ويروى أن سيار بن هاني أبا إبراهيم بن سيار النظام جاء بابنه إبراهيم إلى الخليل، وقال: أحب أن يكون هذا الصبي بين يديك؛ فقال الخليل لإبراهيم كالعابث وفي دار الخليل نخلة: صف لي هذه النخلة؛ قال: بمدح أم بذم. قال: بذم؛ قال: هي صعبة المرتقى، خبيثة المجتنى. قال: فصف زجاجتي هذه- يعني كأسًا في يده. فقال: أبمدح أم بذم؟ قال: بذم؛ قال: هي سريعة الانكسار، بطيئة الانجبار. فقال الخليل لأبيه: أنا أحتاج أن أتعلم من ابنك هذا[٥].

وقيل: كان الخليل بن أحمد إذا أفاد إنسانا شيئا لم يره أنه أفاده، وإن استفاد من أحد شيئا أراه بأنه استفاد منه[٦].

---

١ - تهذيب الأسماء واللغات- أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي ت ٦٧٦ هـ - تحقيق مصطفى عبد القادر عطا – نسخة إلكترونية : ١/ ٢٥٠

٢ - بغية الوعاة : ١ / ٥٥٨

٣ - الفلاكة والمفلوكون - أحمد بن علي بن عبد الله، شهاب الدين الدَّلْجي المصري ت ٨٣٨هـ - مطبعة الشعب، مصر ١٣٢٢ هـ : ٦٩/١

٤ - تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي - دار الكتب العلمية – بيروت : ١٤ / ١٤٦

٥ - نور القبس : ١/ ٢٥

٦ - التاريخ الكبير – البخاري ت ٢٥٦ هـ - المجلد الأول - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان : ١/ ٤٢٤

قال ابن قتيبة في المعارف: كان الخليل ذكيًّا، لطيفًا، فطنًا، واتفق العلماء على جلالته وفضائله، وتقدمه في علوم العربية من النحو واللغة والتصريف والعروض، وهو السابق إلى ذلك، المرجوع فيه إليه[1]، وروي عنه أنه قال:

إن لم يكن لك لحم كفاك خل وزيت
إن لم يكن ذا وهذا فكسرة وبييت
تظل فيه وتأوي حتى يجيئك موت
هذا لعمري كفاف فلا يغرك ليت[2].

❖❖❖

الخليل وكتاب العين

وبعض العلماء ينسبون كتاب العين إليه، وبعضهم يُنكر ذلك، أما مَنْ ينكر فيقول: «كانت مقطعات جمعها الليث بن المظفر بن نصر بن يسار صاحب الخليل، وزاد فيها ونقص ونسبها إلى الخليل، وهو بريء منها. واتفقوا على كثرة الأغاليط في كتاب العين، وكثيرًا مما ينقل الأزهري في تهذيب اللغة عن العين من الأغاليط، ويقول: هذا من عدد الليث»[3]

و قال السيوطي – عن الخليل – : «وعمل أول كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتهيأ ضبط اللغة. وكان من الزهاد في الدنيا، والمنقطعين إلى العلم؛ ويروى عنه أنه قال: إن لم تكن هذه الطائفة أولياء لله فليس لله ولي»[4].

فالخليل على هذا الرأي وضع أول كتاب العين، فهو المؤسس لعلم المعجمات العربية، ثم جاء تلميذه وصاحبه الليث فزاد عليه أشياء ضمنها الكتاب ذاته.

❖❖❖

وفاته

توفي الخليل سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل: سنة سبعين، وقيل ستين، وله أربع وسبعون سنة[5].

---

١ - تهذيب الأسماء واللغات : ١/ ٢٥٠

٢ - ينظر الثقات - محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي - تحقيق السيد شرف الدين أحمد - دار الفكر - الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م : ٨/ ٢٣٠ ، وينظر أيضا السحر الحلال في الحكم والأمثال - أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي - دار الكتب العلمية – بيروت: ١ / ٣٠

٣ - تهذيب الأسماء واللغات : ١ /٢٥٠

٤ - بغية الوعاة : ١ / ٥٥٧

٥ - نفسه : ١/ ٥٦٠

وكان سبب موته أنه فكر في ابتكار طريقة في الحساب تُسَهِّلُهُ على العامة فدخل المسجد وهو يعمل فكره فصدمته سارية وهو غافل فكانت سبب موته[1].

سبحانك اللهم، هذا هو الخليل بن أحمد يشب على العلم، ويشيب عليه، ثم هو يموت ويقبض عليه، فتكون آخر أنفاسه التي التقطها من الدنيا شاهدة له بأنه رجل سلك طريق العلم، لا لينال منه فحسب، وإنما لييسره لغيره ويورثه.

اللهم ربنا ارحم الخليل، وتقبل عمله بقبول حسن من لدنك ورضوان، واجزه عن العلم وطلابه خيرا.

❖❖❖

١ - ينظر المرجع السابق : ١/ ٥٦٠